

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنْخَظَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا لِبَطْلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (١٧)

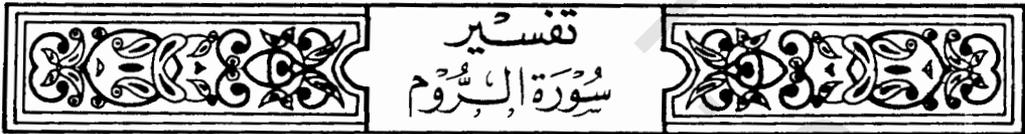
يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمة الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم. والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً ﴿أَفِيَا لِبَطْلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا غيره من الأصنام والأنداد.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (١٨)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال: إن الله أوحى إليه، ولم يوح إليه بشيء، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩)

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي لنبصرهم سبلنا، أي طرقنا في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. قال عيسى ابن مريم: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَدَّ ۝١ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾

نزلت هذه الآيات من أول سورة الروم حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل. كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم،

فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «ألا جعلتها إلى دون - أراه قال العشر - قال سعيد بن جبیر: البضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: 1-2] - إلى قوله - ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27] رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي. وفي رواية «ألا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع». وتقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة. والروم من سلافة العيص بن إسحاق عليه السلام.

﴿فِي يَضَعُ سِينَتَهُ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾  
﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي من قبل ذلك، ومن بعده ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وكانت نصر الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي في انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق، وخبر صدق، لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أدكيا في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدين، وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾

يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، فقال ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم

العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة الأجناس المختلفة فيعلموا أنها ما خلقت سدى، ولا باطلاً، بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، ولهذا قال ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَحَمَاهُمْ رَسُولُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٩)

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم فقال ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين، ولهذا قال ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانت الأمم الماضية، والقرون السالفة أشد منكم قوة أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ، وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طويلاً فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلمهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم، وأولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي، وإنما أتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزأوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة، وتكذيبهم المتقدم ولهذا قال:

﴿فَمَنْ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠)

أي كانت السواى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١)

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة، فيجازى كل بعمله. ثم قال:

﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبٰلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٢)

﴿يُبٰلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يباس المجرمون.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كٰفِرِينَ﴾ (١٣)

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ﴾ أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كٰفِرِينَ﴾، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم.



شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض، ويكتسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور ودهاء وفكر ورأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكر والحسن والقبح والغنى والفقر والسعادة والشقاوة. روى الإمام أحمد، قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والخبث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك» ورواه أبو داود والترمذي. وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي خلق لكم من جنسكم إنثاءً تكون لكم أزواجاً ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ كما قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189] يعني بذلك حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً، وجعل إنثاهم من جنس آخر من غيرهم: إما من جان، أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن ﴿مَوَدَّةً﴾ وهي المحبة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة، إما لمحبة لها، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الانفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السَّيِّئَاتِ وَالْوَالِدَاتِ﴾

﴿لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار، وحيوان وأشجار ﴿وَأَخْلَفَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء فرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف

لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم، وهي حلاهم. فجميع أهل الأرض، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمعة أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفياً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَعْلَمِينَ﴾.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (١٣)

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار، ففيه تحصل الراحة، وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يعون. روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أصابني أرق من الليل، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: قل: «اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أتم عيني، وأهدئ ليلي» فقلتها فذهب عني.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٤)

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة، وتارة ترجون وميضة، وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعدما كانت هامدة لا نبات فيها، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (١٥)

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: 65] أي قائمة ثابتة، بأمره لها، وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى، ودعائه إياهم، ولهذا قال ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

﴿وَلَهُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ﴾ (١٦)

﴿وَلَهُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ملكه وعبده ﴿كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً. وعن أبي سعيد مرفوعاً «كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة».

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ يعني أيسر عليه. وفي البخاري، قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] قال قتادة: مثله: أنه لا إله إلا هو ولا رب سواه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله شرعاً وقدرأً.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءهم من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال. والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله أنداداً من خلقه؟ وهذا كقوله ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: 62] أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي في عبادتهم الأهواء بغير عمل ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ، ولا مجبر، ولا محيد لهم عنه، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِن مَّا كَثُرَ الْكَافِرِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى: فسدد وجهك على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية: ملة إبراهيم الذي

هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته، وتوحيده، وأنه لا آله غيره ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الاعراف: 172] وفي الحديث «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» ﴿لَا بُدَّ لِلَّذِينَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ أي ساوى الله بين خلقه في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك. أو لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها فيكون خبراً بمعنى الطلب. وفي الحديث «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول ﴿فَطَرَتَّ اللَّهُ إِلَيْنِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١)

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه. ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي خافوه وراقبوه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣٢)

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم، أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل، كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه. روى الحاكم في مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحِمَهُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣)

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره.

﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٤)

﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض

الله لهم ذلك . ثم توعدهم بقوله: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفت منه، فيكف، والمتوعد هنا هو الذي يقول للشيء: كن فيكون.

﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٥)

ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ أي حجة ﴿ فَهَوْا يَتَكَلَّمُ ﴾ أي ينطق ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا استفهام إنكاري، أي لم يكن لهم شيء من ذلك.

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (٣٦)

هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووقفه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾ [هود: 10].

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٧)

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ فَاتَّذَا الْقُرْبَى حَقَّهُمُ وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣٨)

يقول تعالى أمراً بإعطاء ﴿ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ أي من البر والصلة ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته ﴿ وَأَنَّ السَّبِيلَ ﴾ هو المسافر المحتاج إلى نفقة، وما يحتاج إليه في سفره ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أي النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ

وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (٣٩)

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله، وهذا الصنيع مباح، وإن كان لا ثواب له فيه إلا أنه قد نهي عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَمَنَّوْا سَعَةً ﴾ [المدثر: 6] أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الربا ربا، فربا لا يصح، يعني ربا البيع، وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها، ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوَا ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة، ولهذا قال ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أي الذين

يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما جاء في الصحيح «وما تصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيريها لصاحبه كما يربي أحدكم فله، أو فضيله حتى تصير الثمرة أعظم من أحد».

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي هو الخالق الرازق، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً، لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ويرزقه، الرياش واللباس والمال والأملك والمكاسب. روى الإمام أحمد عن حبة وسواء ابني خالد، قالوا: دخلنا على النبي ﷺ، وهو يصلح شيئاً فأعناه فقال: «لا تياساً من الرزق ما تهزئت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله عز وجل». وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي يوم القيامة، وقوله: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ؟﴾ أي لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة. ولهذا قال بعد هذا كله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالى وتقدس وتزه وتعاظم عز وجل عن أن يكون له شريك، أو نظير، أو مساو، أو ولد، أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

المراد بالبر هنا الفيافي، وبالبحر الأمصار والقرى. وقيل: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر هو البحر المعروف. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر يعني دوابه. والقول الأول أظهر، وعليه الأكثرون، ويؤيده ما قاله ابن إسحاق في السيرة: إن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة، وكتب إليه ببحره، يعني ببلده. والمعنى بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي. ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي ليعتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم، ومجازاة على صنيعهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن المعاصي، كما قال تعالى ﴿وَيَلْوَنُهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾﴾  
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي فانظر ما حل بهم من تكذيب الرسل، وكفر النعم.

﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾ (٤٣)

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾ أي يتفرون ففريق في الجنة، وفريق في السعير، ولهذا قال تعالى :

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (٤٤) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٥)

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (٤٤) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يجازيهم مجازاة الفضل؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجوز.

﴿وَمَنْ أَيْبَسَهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦)

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال ﴿وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي المطر الذي ينزله فيجيء به العباد والبلاد ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ﴾ أي في البحر، وإنما سيرها بالريح. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي في التجارات والمعاش والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة وابطانة التي لا تعد ولا تحصى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُومُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧)

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هو حق أوجب على نفسه الكريمة تكراً وفضلاً، كقوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54] روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُمْ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ (٤٨)

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسُ سَحَابًا﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله عز وجل: ﴿يَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يمدده فيكثره وينميه، ويجعل من القليل كثيراً، ينشئ سحابة ترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقلاً مملوءاً، كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: 57] وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْمَوْتَىٰ يَخْرُجُ مِنْ خِلَابِهِ﴾ فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم، ووصوله إليهم.

﴿وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ ﴿٥٨﴾﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم على فاقة وقع منهم موقعا عظيماً.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٩﴾﴾

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفريقها وتمزقها فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يابسة على الزرع الذي زرعه، ونبت وشب، واستوى على سوقه، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي قد اصفر، وشرع في الفساد ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿يَكْفُرُونَ﴾ أي يجحدون ما تقدم إليه من النعم.

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدانها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مدبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن الضلالة، بل ذلك إلى الله، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: 36] وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: 80] على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قلب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاينته إياهم، وتقريره لهم حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» وتأولته عائشة على أنه قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق» والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٣﴾﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظاماً، ثم تكسى العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، ثم يشب قليلاً قليلاً، حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً، ثم شاباً، وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في التقص فيكتهل، ثم يشيخ، ثم يهرم وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللحية، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يفعل ما يشاء، ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم من لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذروا إليهم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي فإرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون: ما لبثوا غير ساعة ﴿لَقَدْ

لَيْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿ أَي كِتَابِ الْأَعْمَالِ ﴾ ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْتِ﴾ أَي يَوْمِ خَلْقْتُمْ إِلَى أَنْ بَعَثْتُمْ ﴿وَلَدَكُنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ﴾ أَي عِذَارُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أَي وَلَا هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [نصفت: 24].

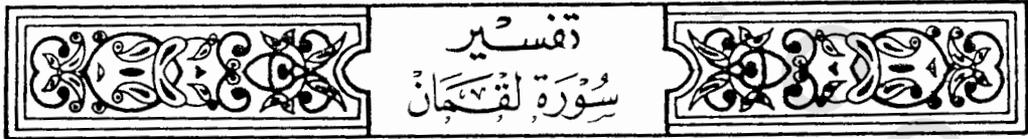
﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطَّعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أَي قَدْ بَيَّنَّا لَهُمُ الْحَقَّ، وَوَضَحْنَا لَهُمْ، وَضَرَبْنَا لَهُمْ فِيهِ الْأَمْثَالَ لِيَسْتَبِينُوا الْحَقَّ وَيَتَّبِعُوهُ ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أَي لَوْ رَأَوْا أَي آيَةً كَانَتْ، سِوَاءَ كَانَتْ بِاقْتِرَاحِهِمْ أَوْ غَيْرِهِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا سِحْرٌ وَبَاطِلٌ، كَمَا قَالُوا فِي انْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَنَحْوِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٩٧﴾ [يونس: 96-97] ولذلك قال ههنا: ﴿كَذَلِكَ يَطَّعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أَي اصْبِرْ عَلَى مَخَالَفَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنْ نَصْرِهِ إِيَّاكَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَهُ الْعَاقِبَةَ لَكَ، وَلَمَنْ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أَي بَلْ اثْبَتْ عَلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَةَ فِيهِ، وَلَا تَبْدَلَ عَنْهُ، وَليْسَ فِيمَا سِوَاهُ هُدًى يَتَّبِعُ، بَلِ الْحَقُّ كُلُّهُ مُنْهَضٌ فِيهِ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تقدم في أول سورة البقرة الكلام على حروف الهجاء في أوائل السور .